العرب
الثلاثاء 2020/11/10
السنة 43 العدد 11877

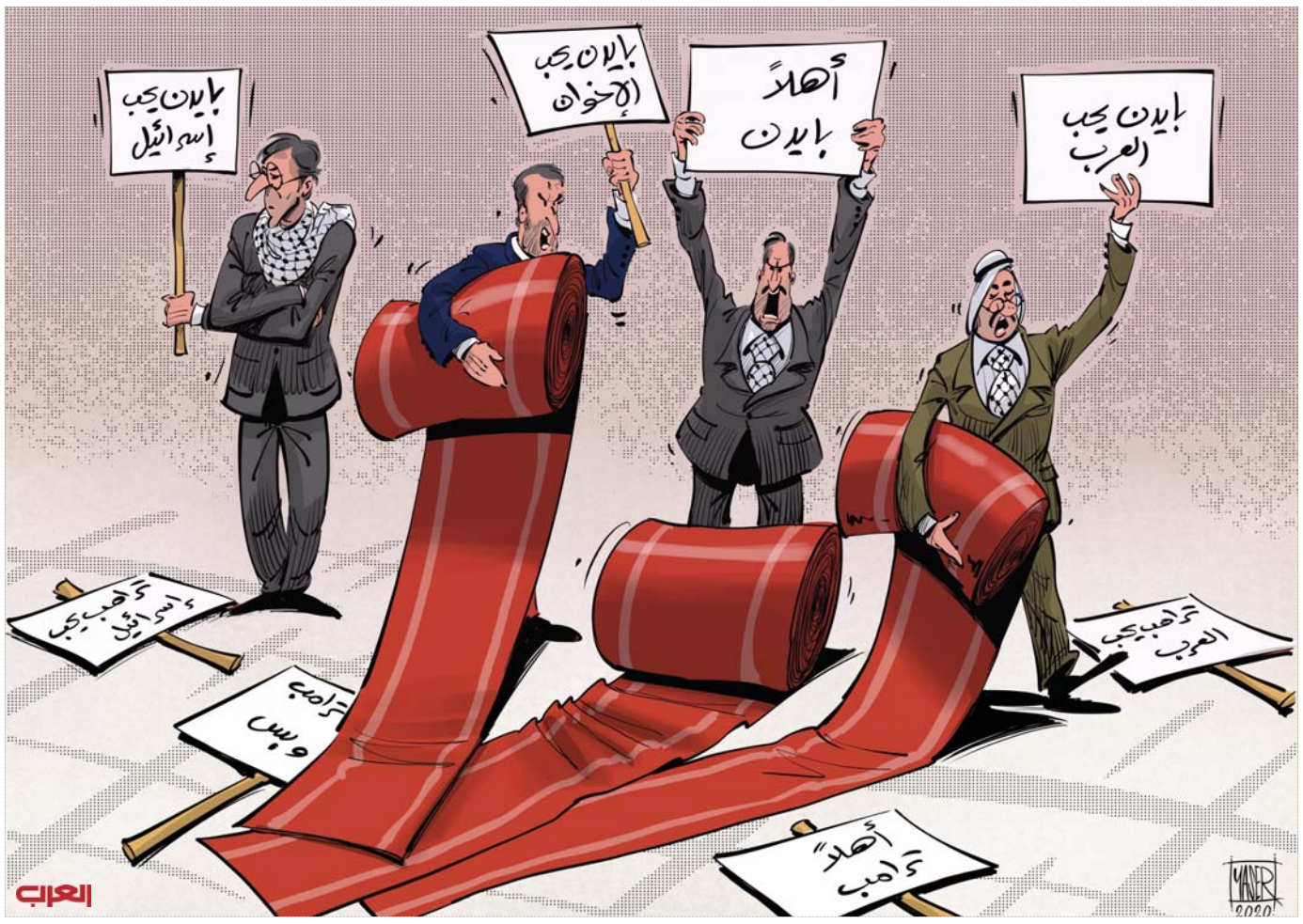

الرئيس ترامب.. مجيئه غلط وذهابه غلط

إبراهيم الزبيدي
كاتب عراقي

من محاسن الديمقراطية الأميركية أنها تترك لمواطنها كل شيء، فلا تتدخل في شؤونه وخصوصياته. فهو حرّ في عقيدته وأفكاره وعمله ومسكنه ومأكله وملبسه وفرحه وحزنه، ما عدا ما يُنقص من حريته حريةَ غيره، أو يعكّر صفوه، أو يغتصب حقا من حقوقه، مع محذورات اتفق المجتمع الأميركي منذ زمن طويل على تحريمها، ومنها تجارة المخدرات، والاختلاس، واستغلال الوظيفة، والكذب أو التحايل على السلطات.

ولكنْ لهذه الديمقراطية مساوئ كبيرة أيضا. فهي تفتح الباب واسعا لدول وأحزاب ومؤسسات وشركات أجنبية باستخدام موطنين أميركيين لخدمة مصالحها، وتشكيل جمعيات ومؤسسات ولوبيات سياسية أو اقتصادية أو دينية أو ثقافية تحاول التأثير على سياسة الدولة وتغيير قراراتها، ولكن بشرط واحد هو أن يعترف ذلك المواطن العميل بأنه عميل، وبأنه يتقاضى أجورا عن عمالته، وعليه أن يصرّح، أولاً بأول، بأي أموال أو هدايا أو إعانات مالية أو عينية تصل إليه من الخارج، وأن يدفع عنها ما يترتب عليها من ضرائب.

وهذا بتقديري أحد أهم العوامل المؤثرة التي مكنت تاجر عقارات وصاحب فنادق وملاهي ونوادي قمار من اختراق جدار المحاصصة السياسية والمالية والحكومية في واشنطن، وانتزاع الرئاسة من حزب عريق.

يضاف إلى ذلك قرفُ الناخب الأميركي من فساد الطبقة السياسية الديمقراطية والجمهورية المهيمنة والمتّهمة بالفساد، مع ضعف شخصية منافسته هيلاري كلينتون وكره الأميركيين لها، ومنهم أعضاء في حزبها الديمقراطي، لأسباب متنوعة عديدة.

ومنذ دخوله البيت الأبيض وحتى خروجه منه قبل أيام، لم يتعلّم ترامب علم السياسة والكياسة وأصول الرياسة، بل بقي كما هو، دون تغيير، يدير أميركا وعلاقاتها مع دول العالم الخارجي كما لو أنه يدير واحدا من نوادي القمار أو الفنادق التي يمتلكها، فيُقرّب هذا ويطرد ذاك من موظفيه بمزاجية منقطعة النظير، ويساوم هذه الحكومة الخارجية أو تلك، ويباهي بنجاحه في الضغط على حكومات وإجبارها على دفع الجزية له، معتقدا أنه بابتزاز أصدقاء أميركا وأعدائها يملأ جيوب المواطن الأميركي ليصبح بذلك في نظر الملايين من الأميركيين المنقذ الأعظم الذي لم يَجُد الزمان بمثله من قبل.

ولكن الحق لا بد أن يقال. فبالوثائق والأرقام حقق طفرات اقتصادية هائلة، حيث بلغ معدل البطالة أقل مستوياته منذ 60 عاما، مع منجزات تاريخية أخرى أولها تخليصُه الخزانة الأميركية من أعباء مالية كبيرة كثيرة كانت تنفقها على المكسيك وكندا وحلف الأطلسي وغيره، ثم تشخيصُه الشجاع لجوهر الإرهاب الدولي وأصله وفصله، وخوضُه الحرب المصيرية معه، بادئا بالخروج من الاتفاق النووي الإيراني الناقص الذي خلفه له سلفه باراك أوباما، ثم نجاحُه في القضاء على دولة الخلافة الإسلامية "داعش" في العراق وسوريا، واصطياد قاسم سليماني.

ولكن من سوء حظ ترامب أن يتفشى كورونا في سنة رئاسته الأخيرة، فيكسر ظهر الاقتصاد، ويرفع أعداد الإصابة والموت بسببه، فيمسح منجزاته الداخلية والخارجية التي كان يباهي بها، ويكرر استعراضها لتقوية حظوظه الانتخابية، ثم يجد فيه خصومُه الديمقراطيون سلاحا ناجزا قاتلا بعد أن فشلت أسلحتهم الأخرى التي لم يتوقفوا عن استخدامها لإسقاطه منذ أول يوم له في البيت الأبيض وحتى آخر يوم.

باختصار، لقد تجمعت كواسر السياسة والتجارة الداخلية والخارجية معا، بأموالها وأجهزة إعلامها وجيوشها الإلكترونية، لقهر شخص واحد هو دونالد ترامب، فسقط.

ورغم عدم توفر دليل ملموس ومقنع على تدخل حكومات خارجية لإسقاطه، إلا الفرح الذي اجتاح شعوبا وحكومات خارجية (معينة) معروفة بعدائها لجميع سياسات ترامب يعني الكثير.

كما أن تلاعب الحزب الديمقراطي وأجهزة الولايات المتأرجحة الموالية للديمقراطيين، خصوصا في 65 مليون استمارة اقتراع بريدية، أمر واردٌ وليس ببعيد.

المهم في المحصلة النهائية أن ترامب راح ضحية جبهة واسعة وخطيرة من الأعداء والكارهين الداخليين والخارجيين على السواء.

طبعا لم يستغرب أحدٌ حماسة النظام الإيراني وملحقاته القطرية والعراقية واللبنانية واليمنية والفلسطينية في الرقص والزغردة والتشفي بخسارة ترامب، ولكن العجب العجاب أن نجد صحفا وفضائيات وأحزابا وشخصيات عربية، من خارج المعسكر الإيراني أو الإخواني، بعد أربع سنوات من حرق البخور والمديح والإطراء لترامب، وتعظيم شجاعته، وإبراز أخباره وصوره وقراراته وتصريحاته، لحد النفاق المكشوف، تنقلب عليه، فجأة، وتتفرغ لتمجيد الملك الجديد والإكثار من الحديث عن ماضيه (المشرف)، وعن خبراته ومؤهلاته ونجاحاته، ثم تنطلق، في الوقت نفسه، في التبشير بأنباء هزيمة الآخر، بما يفوق طبيعة المهنة الصحافية، حتى قبل إعلان النتائج الرسمية النهائية بقليل، وهو ما يعني أنها لم تكن صادقة مع السابق، ولا هيَ صادقة مع اللاحق، دون ريب.

ثم فجأة توقفت هذه الصحف والإذاعات والفضائيات العربية عن تعليقاتها وتحليلاتها وأحكامها بالخيانة للإنسانية وهي تُقلّب إيميلات هيلاري وهنتر بايدن، وتحولت للبحث عن عيوب ترامب وزلات لسانه، دون استحياء.

تُرى هل هذه هي طبيعة البشر من أيام الإسكندر ذي القرنين وهولاكو وجنكيز خان، أم هي جديدة أنتجها عصر الانحطاط الرديء الجديد، أم أن الانتهازيين في التاريخ البشري الطويل كانوا، ويظلون، مع الواقف القوي، ظالما أو مظلوما، لأنهم صغار؟

أما السبب في رحيل ترامب فهو سياسات خطيرة وضع أساسها وباشر بتنفيذها، مع إيران والصين وروسيا وكوريا الشمالية وكندا والمكسيك ودول أميركا اللاتينية الأخرى غيَّر بها المقاييس والموازين، وقلَب أصول لعبة الأمم رأسا على عقب، كان ينبغي لها أن تكتمل على يديه.

ومنها، مثلا، أنه توعد النظام الإيراني، فور إعلان فوزه بالرئاسة، إلى لحظة الإقرار بالهزيمة، بالاستسلام لشروط وزير خارجيته، مايك بومبيو، ليرتاح الشعب الإيراني، قبل سواه، وليرتاح العراقيون والسوريون واللبنانيون واليمنيون والفلسطينيون وشعوب المنطقة الأخرى والدنيا أجمعين.

أما الآن فسوف يكسب الولي الفقيه وذيوله عاما، أو ربما عامين، من الغطرسة والقتل والحرق والغزو والاحتلال قبل أن يصل بايدن إلى القناعة المؤكدة القادمة، كسلفه، بأن هذا النظام لا يفهم سوى لغة ترامب، وأن عليه أن يكمل ما بدأه سلفه الصالح، فيبدأ بقلع أنياب هذا الوحش الخطير وخلع أظافره، ولكن بعد أن تكون شعوبُ المنطقة قد تكبدت أنهارا إضافية من الدماء والدموع التي كان مقررا أن تنجو منها. والشيء نفسه سيحدث مع الصين وروسيا وقطر والإخوان المسلمين. والعبرة بخواتم الأمور، وإن طال بنا الانتظار.

> **الولي الفقيه وذيوله سوف يكسبون عاما أو عامين من الغطرسة والقتل والغزو قبل أن يصل بايدن إلى القناعة المؤكدة القادمة كسلفه، بأن النظام الإيراني لا يفهم سوى لغة واحدة هي لغة ترامب**

بدون ترامب ذلك أفضل

سعد القرش
روائي مصري

لم يستبق العالم خروج رئيس أميركي من البيت الأبيض بمثل "زفّة" الشماتة بدونالد ترامب. وداع منزوع الهيبة، رسالة رمزية تشبه الاتفاق على أن الحياة أفضل بدون رجل سيذكر التاريخ أنه مجرد حادث سير ديمقراطي، خطأ عابر في لحظة مرتبكة كان فيها الاختيار بين سيء وأكثر سوءا، وجاء رجل الأعمال الأسوأ. وفي أقرب انتخابات تصحح الديمقراطية مسارها، ويشيّعه رسامو الكاريكاتير وفنانو الغرافيك والفيديو بسخريات بلغت حدّا هزليا ألبس ترامب جلبابا، وأعاده إلى التجارة التي يجيدها، واستقر في سوق شعبية في مصر يبيع الخضر. أما اللافتة الأكثر إيلاما فقد رفعها شاب عربي متسائلا: لماذا لا تسمح أميركا للعرب بالتصويت؛ لاختيار رئيس حكامهم؟

مرارة سؤال الشاب، مع استحالة تنفيذ الافتراض، تأكدت بمتابعة فضائيات مصرية وزعت اهتمامها، بغير إنصاف، بين الانتخابات الرئاسية الأميركية وانتخابات محلية برلمانية أهملتها الأغلبية؛ لليقين بعدم الجدوى، فلا يذكر مراقب كرامة للبرلمان منتهي الولاية والصلاحية، ويكفي عصر ليمونة للاستماع إلى بيان يتلوه رئيسه علي عبدالعال، ولن يخلو سطر من أخطاء لا تسلم منها الآيات القرآنية. ويضاف الارتباك إلى أخطاء النطق والمنطق، اتساقا مع قاعدة "يكاد المريب.."، ففي جلسة موافقة البرلمان على التنازل عن جزيرتي تيران وصنافير المصريتين، عام 2017، أعلن عبدالعال الموافقة على اتفاقية ترسيم الحدود بين مصر "والمملكة العصبية"، يقصد العربية. سخونة التوتر صهرت الكوابح، فاتصل اللسان بالعقل الباطن.

لا فرق كبيرا بين الجمهوريين والديمقراطيين، وإن بدا التصويت والترقب الخارجي انتظارا عنوانه "ما بعد ترامب"، دون اهتمام بتفاصيل ما بعد العنوان، رفضا لما يمثله ترامب من قيم عنصرية، ودعم للدكتاتوريات، والتباهي بصغار المستبدين، وتعزيز التوحش الرأسمالي، وفقدان اللباقة الدبلوماسية، ففي القمة العربية الإسلامية الأميركية بالرياض (21 مايو 2017) تجاهل علاقة الإرهاب بالاستبداد، وإرهاب الدولة الذي تمارسه إسرائيل، لأنه يستهدف المليارات. وفي اليوم التالي زار حائط البراق، في سلوك غير مسبوق لرئيس أميركي، وحشا قصاصة ورقية في إحدى فجواته، وتلا مزمور "الخلاص لأورشليم". ثم غرّد "إعادة مئات المليارات من الدولارات إلى الولايات المتحدة من الشرق الأوسط تعني وظائف وظائف وظائف".

طوال أربع سنوات تعامل ترامب بذهنية طفل نزق، لا يقنع بالحصول على المليارات من الدولارات، وإنما يتبع الأخذ ويسبقه بالابتزاز والتحقير والصلف والمعايرة، ولم يقدم لأحد جزرة مؤمنا بردع العصا. ولم يتردد في إعلان نفسه تاجرا ماهرا يجيد عقد الصفقات، شيء مقابل شيء، إتاوات من أجل حماية العروش. ولم تشفع له مليارات الإتاوات، فاستمر التراشق بينه وبين فنانين ومثقفين وصحافيين، ولولا رسوخ الديمقراطية وتمثلها في مؤسسات أكبر من الرئيس لوجدنا رموزا رهن اعتقال مفتوح بدون محاكمة، أو في السجون لاتهامهم بالعيب في ذات رئيس أنفق وقته في تغريدات تنال من وقار المنصب، حين يتفرغ لانتقاد ميريل ستريب وروبرت دي نيرو.

أحتكم إلى قاعدة: "قل لي رأيك في ترامب أقل لك من أنت". أستاذ للفلسفة مراد وهبة (94 عاما) يواصل التبشير، منذ أربع سنوات، بأن ترامب مبعوث العناية الإلهية لتخليص العالم من شرور الإخوان المسلمين، والقضاء على تركة باراك أوباما وهيلاري كلينتون في رعاية تنظيمات إرهابية. ولم يتعمد ترامب خذلان أستاذ الفلسفة بعدم المساس بالجماعة التي وعد بإعلانها تنظيما إرهابيا، مجرد وعد، كما خذله في فبراير 2020 باتفاق سلام وقعه وزير الخارجية مايك بومبيو مع حركة طالبان، لإنهاء عقدين من الصراع، تاركا الشعب الأفغاني لمصيره. الرصانة الفلسفية وجه آخر لعويل فضائيات مصرية واصلت النواح على ترامب مع اقتراب فوز جو بايدن.

لم يكن ينقص مذيعي فضائيات مصرية، من الموالاة، إلا لوم الناخب الأميركي ودعوته إلى التصويت لترامب، ويسوقون لذلك حججا لا تهم الشعب الأميركي غير المشغول بمصر وفضائياتها وملاكها. وأبرز اتهاماتهم لبايدن أنه سيعادي المسلمين، مع أن ترامب هو الرئيس الأميركي الأكثر إلحاقا للأذى بالعرب والمسلمين، كما يباهي برعاية مستبدين صغار لا يضمنون استمرار هذه الحماية والتحالف مع بايدن، القادم من داخل دولاب المؤسسة الأميركية، وأيًا كانت انحيازاته فصعوده دليل اعتذار الأميركيين عن اختيارهم لترامب في الانتخابات السابقة، وبانتخاب بايدن تنتهي إملاءات جارديد كوشنر صهر ترامب، وتختفي نغمة شعبوية نشاز تتردد أصداؤها، خطابا وممارسة، في عواصم عربية. نسخ مزيدة غير منقحة.

> **مذيعو فضائيات مصرية من الموالاة لم يكن ينقصهم إلا لوم الناخب الأميركي ودعوته إلى التصويت لترامب، ويسوقون لذلك حججا لا تهم الشعب الأميركي غير المشغول بمصر وفضائياتها وملاكها**

بالعودة إلى لافتة الشاب العربي الذي يريد للعرب المشاركة في اختيار من يحكم حكامهم، فإنه ربما يقول إن أغلب الشعوب العربية ما دامت لا تختار حكامها، فلتحلم ببلاد ديمقراطية حقا تتيح لها حرية اختيار حاكم حكامها. حلم ساخر يحدد أصل الأزمة، وهي التبعية، والارتهان إلى قوة لا يمكن أن تكون أخلاقية، ولا يطالبها بذلك إلا السذج، في تذكير بتعليق ونستون تشرشل لما قرأ على شاهد قبر، لعله قبر غاندي، "هنا يرقد رجل نبيل وسياسي عظيم"، فعلّق: "عجبا كيف يرقد رجلان في قبر لرجل واحد!".

ومنذ اعتمد الخطاب الرئاسي المصري "صديقي نيكسون" عام 1974، وتلاه "صديقي كارتر"، انتهينا إلى "صديقي بيغن".

عام 2008 اكتفى باراك أوباما بكلمة "التغيير" شعارا لحملته الانتخابية. كان الرهان على أوباما في تغيير السياسة الخارجية بعد استشراء اليمين في إدارة جورج بوش. لم يتوقف الكثيرون أمام زيارة أوباما لحائط البراق، في يوليو 2008، وعلق عليه العالمان الإسلامي والعربي آمالا في الإنصاف، فهو الأسود، الذكي، تلميذ إدوارد سعيد. وتراجع حلم "التغيير"، فاقتصر على عدم إعلان حرب صليبية جديدة، كما فعل بوش عشية غزو العراق. وفي 4 يونيو 2009 أذكى هذا الأوهام بخطابه في القاهرة، مستضافا من الأزهر وجامعة القاهرة. ومضت ثماني سنوات انتهت بصعود ترامب حتى بدا الخلاص منه شبيها بالخلاص من بوش، فقط ليكون العالم أقل فجاجة.